Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويطبع التمرد الكثير من كتاباته. ويعزو الباحثون ذلك إلى عدة أسباب منها انتقاله المبكر من تقاليد قديمة غاية فى التخلف نشأ فى ظلها، إلى تقاليد الحياة والمجتمع فى نيويورك التى هاجر إليها وهو طرى العود وترعرع فى جوّها البروتستانتى والماسونى. والمعروف أن الماسونية فى نهاية القرن الماضى، سواء فى الشرق أو فى الغرب، كانت تختلف فى توجهها عما آلت إليه فيما بعد. فقد كانت حركة تحرر وتنوير. وكان الأفغانى، على سبيل المثال، من الماسونيين فى نهاية القرن الماضى.

وفى الجو الأميركى الرحب والسمح تنفس الريحانى ارتياحًا: «ولدت فى حضن التقاليد الاجتماعية والدينية القديمة السقيمة، وفى قيود التعصب الذى يطرد الحق والعدل من قلب صاحبه ويطفئ فيه مصباح الحب الشامل والحنان، وفى قيود الحكم العثمانى التى كان يصقلها لأهلنا رجال الدين والوجاهة فينا، فكُتب لى الخلاص منها فى صباى، فظعنت، وأمنت، وأقمت فى بلاد لا قيود البتة فيها، فوددت لأهلى وبلادى ما استمتعت به هناك، وعوّلت فيما أكتب أن أستعين بحرية العالم الجديد لأحطّم من أجلهم تلك القيود كلّها».

ولكنه لم يستقر فى نيويورك استقرارًا كاملا؛ فقد كان دائم التردد منها إلى لبنان وسواه من البلاد العربية، ولذلك فإن «مهجريته» ليست صلبة متينة كمهجرية سواه من الأدباء اللبنانيين والشوام الذين نزحوا إلى أميركا الشمالية والجنوبية كجبران وإيليا أبو ماضى ونعمة قازان ورشيد أيوب. ومع أنه أقام فى المهجر الأميركى الشمالى، فإن أدبه لا يتميز بالحنين والشكوى والنزعة إلى خلاص النفس التى اشتهر بها أدب هذا المهجر، بل إن أدبه يتميز بنزعة واقعية واجتماعية ووطنية واضحة. فخلاص الإنسان العربى والعالم العربى هو ما كان يعنيه، لا خلاص الذات الفردية وهمومها الخاصة. وفى حين كان جبران، أو نعيمة، نوعًا من مغترب فى هذه الدنيا يحنّ إلى دنيا روحية أخرى، فقد كان الريحانى «حاضرًا» كل الحضور فى دنياه هذه، مركوزًا فيها، عاملاً على تغييرها، مناضلاً من أجل هذا التغيير.

ولعل أحد أسبابه فى عدم مشاركته فى النشاط داخل «الرابطة القلمية» فى نيويورك إلى جانب أدباء المهجر الآخرين، أن هؤلاء حصروا نشاطهم بالكتابة الأدبية دون سواها، وبنمط من الكتابة أشرنا إلى أبرز مميزاته فيما تقدم. فى حين أن الريحانى كان قد أنجز مرحلته الأدبية الصرفة قبل ذلك بما لا يقل عن خمس عشرة